DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثاني

التحركات الفرنسية في فيتنام

مع نهاية القرن السابع عشر، أغلق كلّ من الإنجليز والألمان مرافقهم في هانوي، وأقفل الفرنسيون مركزهم في فوهيين . لم تنشط إلا البعثات التبشيرية التنصيرية، التي حققت نجاحات ملحوظة. وكانت الكنيسة الكاثوليكية أشدها تأثيراً، إذ تهافت مئات الفيتناميين على اعتناق الكاثوليكية، ودانت بها مناطق كثيرة. وقد حاربت هذه المناطق، بعد ذلك، عام ١٩٤٦، كلاً من القوات الاستعمارية الفرنسية، والقوات الشيوعية الفيتنامية. ولذا، فرّ سكان القرى الكاثوليكية جميعاً إلى الجنوب، في عام ١٩٥٤، عقب هزيمة الفرنسيين، وإرساء حكومة شيوعية في فيتنام الشمالية؛ رغبة في العيش في ظل نظام نجو دنه دييم ، الذي كان أسلافه، قد تحولوا إلى المسيحية، منذ قرون.

منذ البداية، لم يرحب الأباطرة الفيتناميون كثيراً بالبعثات التنصيرية؛ ولكن ذلك لم يمنع جماعات الجيزويت من النشاط في دعوتهم؛ فأسسوا بعثة لهم في فايفو. كان لأحد أبرز رجالهم، ألكسندر دي رودس ، الفضل الكبير في فتح أبواب فيتنام أمام الفرسيين؛ إذ أجاد لغة الفيتناميين، ونجح في التودد إليهم، بل أصبح حَظِيَّ إمبراطور فيتنام الشمالية، ترنه ترانج، بعد أن أغدق عليه الهدايا الفرنسية، ولا سيما ساعة متطورة مطلية بالذهب. ومن ثَم، سمح له الإمبراطور بالتحرك، بكلّ حرية، داخل فيتنام؛ فنجح، في غضون عامَين، في تنصير نحو سبعة آلاف فيتنامي، بينهم ١٨ من طبقة النبلاء.

بدأت جماعات من المتنصرين تطالب السلطات بتغيير القانون، ومقاومة ظاهرة تعدد الزوجات؛ فقرر الإمبراطور طرد ألكسندر دي رودس من البلاد، فرحل إلى الجنوب، ثم

إلى ماكاو ، ثم عاد إلى فيتنام الشمالية، فقبض عليه، وأُودِع السجن. ثم طرد من البلاد، فرحل إلى روما، حيث أخفق في استعطاف بابا الفاتيكان؛ فعاد إلى فرنسا، ونجح في إغراء كثير من القادة، وأصحاب الرأي، ورؤساء الشركات التجارية، بغزو فيتنام، التي، حسبما زعم لهم، «تفيض بالخيرات والثروات»، والتي «يستخدم صيادوها شِباكاً من الذهب في صيد الأسماك».

شرع الفرنسيون، بعد وفاة دي رودس، يخططون للغزو؛ فنشطت الإرساليات التنصيرية، والشركات التجارية، وتأسست شركة تجارية كبرى في روين، كانت مهمتها الظاهرة تنشيط التجارة مع فيتنام. أمّا مهمتها الباطنة، فهي نقْل أمهَر القساوسة الدعاة إلى تلك البلاد، وتيسير مهامهم وإقامتهم؛ فتأسست شركة الهند الشرقية ، التي نشطت في المهام التنصيرية، خلال القرن الثامن عشر. وفي فرنسا نفسها نجحت الجماعات، الداعية إلى غزو فيتنام، في تهيئة الرأي العام الفرنسي لذلك، من خلال تنويه النشرات المتوالية بالثروات الفيتنامية الطائلة.

انتهزت فرنسا الاضطرابات في فيتنام، فساعدت حركة تمرد تايسون ، عام ١٧٧٢، على أسرة نجوين. وسرعان ما قويت شوكة المتمردين، الذين تمركزوا في منطقة كوينهون، إذ انضم إليهم كثير من المزارعين، الناقمين على مستغليهم، كبار ملاك الأراضي الزراعية. فاستولوا، خلال ثلاث سنوات، على سايجون؛ ثم على ميناء صغير، حيث قتلوا آلاف التجار الصينيين. وفرض جيش تايسون نظاماً ضريبياً؛ وبرنامج إصلاح زراعي، تضمن توزيع الأراضي على القرويين الفقراء. وسمح بنشاط الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية، الفرنسية؛ بل وفّر لها الحماية العسكرية الكافية. اندفع الجيش إلى الشمال، وبعد إخضاعه للجنوب، حيث أطاح أُسرة ترينه ؛ وتمكن من توحيد فيتنام كلها.

رفض «نجوين أنه» أحد شباب أُسرة نجوين، الخضوع والاستسلام للهزيمة، فشرع يقاوم، مع رجاله؛ فتمكن من استعادة سايجون. والتقى الراهب الفرنسي الشهير، بينو دو بيهان ، الذي كان البابا كليمنت الرابع عشر ، قد عيّنه، عام ١٧٠٠، أسقفاً لمدينة أدران ؛ فكان للقائهما أهميته القصوى في العلاقات الفرنسية ـ الفيتنامية.

كان الأسقف يقيم بجزيرة فو كوك ، حينما لجأ إليها نجوين أنه، أثناء صراعه مع أسرة تايسون، فآواه وأخفاه؛ ليصير، بعد ذلك، مقرباً منه، ومستشاراً له. ولم يتردد في نصحه، عام ١٧٨٤، حينما استرد سايجون والمناطق المجاورة لها، جيش تايسون، بأن يستنجد على خصمه بالفرنسيين؛ فانتصح، وعهد إلى الأسقف بمفاوضة الحكومة الفرنسية في هذا الشأن؛ وأرسل معه ولده؛ إثباتاً لحسن نيته، وعزمه على ذلك.

رفض الملك الفرنسي، لويس السادس عشر الفكرة ؛ خوفاً من تبعاتها. غير أن بينو نجح في إقناع مستشاري الملك بالفكرة، حين لَوَّح لهم بأن إنجلترا، سوف تنتهز الفرصة، وتسبق فرنسا إلى فيتنام. فبادر وزير الخارجية الفرنسي، الكونت دو مونتمورين ، في ٢٨ نوفمبر ١٧٨٧، إلى توقيع اتفاقية، نصت على دعم نجوين أنه بـ١٦٥٠ جندياً فرنسياً، مع الأسلحة والذخيرة، والتكفل بنقلهم؛ في مقابل تخلِّي فيتنام عن مدينة توراني، وجزيرة بولو كوندور ؛ فضلاً عن منح فرنسا امتيازات تجارية، وأسبقية على باقي الدول الأوروبية الأخرى.

بيد أن لويس السادس عشر، أرسل، سراً، إلى توماس دو كونواي ، حاكم القاعدة الفرنسية في بوندتشري ، مَن اتفق معه على نقض الاتفاق، واحتجاز بينو لديه. ولم يخلِّص الأسقف من ورطته إلا اندلاع الثورة الفرنسية، وإطاحة الحكم الملكي، عام ١٧٨٩؛ إلا أنه كان مصمماً على مواصلة التخطيط لغزو فيتنام. فأغرى ثُلة من التجار الفرنسيين في الهند، بشراء سفينتَين، وأسلحة وذخيرة، واستئجار نحو أربعمائة مهاجر من القوات الفرنسية، ووضع كلّ أولئك في إمرة نجوين أنه. وتولى هؤلاء المهاجرون تدريب جيش فيتنامي، عديده خمسون ألفاً، فيهم كثير من الكاثوليك.

وهكذا، تمكن نجوين أنه، عام ١٧٩٩، من هزيمة جيش تايسون، في كوينهون . وتُوِّج، عام ١٨٠٢، إمبراطوراً، في هوي ، واتخذ لقب جيا لونج. ولم يظهر أيَّ رحمة تجاه خصومه، أحياء وأمواتاً. وأعلن أن فيتنام مدينة ديناً أبدياً خالداً لكلٍّ من فرنسا، وبينو، الذي مات ودفن في سايجون. وجعل أربعة فرنسيين من كبار مستشاريه، في البلاط الإمبراطوري. وتوثقت العلاقات الفرنسية ـ الفيتنامية؛ إلا أنها ما لبثت أن اعتراها الفتور؛ نتيجة أطماع نابليون بونابرت الشخصية في الهند الصينية، وانشغاله بغزو أوروبا.

أبحر الأسطول الفرنسي، المكون من ١٤ سفينة حربية، و٢٥٠٠ جندي فرنسي وأسباني، في يونيه ١٨٥٨، إلى توراني. وتمكن، في ٣١ أغسطس ١٨٥٨، من الاستيلاء على الميناء، وإخماد المقاومة. وأراد ريجول دو جَنْوِيِّ شن هجوم على المدينة الإمبراطورية، هوي، ولكنه لم يستطع؛ لافتقاره إلى الزوارق والمعدات اللازمة للملاحة النهرية. فاضطر إلى البقاء في توراني، وقبل أن يترك فيها حامية صغيرة، ويبحر جنوباً، عام ١٨٥٩، إلى سايجون، ومعه تسع سفن؛ وتمكن، في أسبوعَين، من الاستيلاء عليها. غير أنه لقي مقاومة شرسة من رجال حرب العصابات، أجبرته على ترك حامية فيها، والعودة إلى توراني. وإزاء المقاومة الشرسة المستمرة، وتفشي الأمراض والأوبئة الغامضة، التي أودت بكثير من الجنود الفرنسيين، اضطر إلى إرسال وفد، لمفاوضة الإمبراطور تو دوك؛ ولكن الأخير رفض مقابلته. فبادر ريجول دو جَنْوِيِّ إلى الاستقالة، وعاد إلى فرنسا.

عَجِل الإمبراطور نابليون الثالث إلى حملة جديدة، في أواخر ١٨٦٠، بقيادة الأدميرال ليونارد فيكتور جوزيف شارنيه ؛ بهدف نجدة الحامية الفرنسية في سايجون.

وقد تمكنت هذه الحملة، في يوليه ١٨٦١، من الاستيلاء على المدينة، بعد إحراقها، وأعلنتها مدينة فرنسية. ثم توغلت في دلتا الميكونج؛ ما اضطر الإمبراطور تو دوك، بعد عام، إلى إبرام اتفاقية صلح مهين مع فرنسا؛ بسبب احتلالها سايجون، والأراضي المتاخمة لها، وهي مناطق إمداد فيتنام بالأرز؛ ومعاناة جيوشه المجاعة والمالاريا والتيفوس؛ ونشاط حركات التمرد عليه في شمالي فيتنام. نصت الاتفاقية على تخلِّيه عن ثلاث محافظات، متاخمة لسايجون؛ إضافة إلى جزيرة بولو كوندور، والسماح للإرساليات التنصيرية بالدعوة، بحرية؛ وفتح ثلاثة موانئ أمام التجارة الأوروبية؛ وتخويل فرنسا حق منع فيتنام من منح أيّ جزء من أراضيها لأيّ دولة أخرى.

لم تَطُل نشوة فرنسا بانتصارها؛ إذ واجهتها، في أواخر ١٨٦٢، مقاومة شرسة، في شمالي فيتنام وجنوبيها؛ ما اضطرها إلى الاستنجاد بكلٍّ من الصين والفيليبين. وازداد موقفها سوءاً؛ حتى إن الخطر، بات يحدق بمستقبلها في فيتنام؛ فاحتاج نابليون الثالث إلى اعتمادات ضخمة، استدعت استعانته بحاكم المكسيك، ماكسميليان .

أمّا الإمبراطور تو دوك، فقد عرض على فرنسا، أن تعيد إليه المحافظات الثلاث، في مقابل أن يرضى بفرض حمايتها على المحافظات الست، التي تشكل الهند الصينية (فيتنام الجنوبية) وسيطرتها الكاملة على سايجون؛ ومنحها امتيازات تجارية في فيتنام؛ إضافة إلى جزية سنوية. ولكن القادة العسكريين الفرنسيين، رفضوا هذه العروض؛ واضطروا نابليون الثالث إلى رفضها. وتحركت قواتهم، عام ١٨٦٤، بقيادة الأدميرال بيير بول ماري بينوا دي لاجراندييير، إلى كمبوديا، حيث قبضوا على ملكها، وهو يحاول الفرار إلى سيام ، وأجبروه على الإقرار بفرض الحماية الفرنسية على بلاده. واستولوا، عام ١٨٦٧، على ثلاث محافظات، في غربي الهند الصينية؛ بذريعة أن الفيتناميين في هذه المنطقة، يهددون الوجود الفرنسي في كمبوديا.